حسن التخــلّص في اللغة والعمارة

أ.م. د.عمـاد يونـس لافـــــــــي
كلية التربية للبنات
جامعة بغداد

(خلاصة البحث)

يعد هذا الموضـوع من الموضـوعات المهمة في الدرس البلاغي العربي، وفي الدرس النقدي أيضـــا، ويتلخص مفهومه بقدرة الشـــاعر على الانتقال من غرض شعري إلى غرض شعري آخر في القصيدة الواحدة، من غير أن يشعر السامع أو القارئ بتفاوت غير مستساغ بين تلك الأغراض، وقد أخذ حيّزًا كبيرًا لدى البلاغيين والنقاد القدامى.

وقد وجدت هذا المفهوم البلاغي شـــاخصًـــا في المفاهيم المعمارية أو التصـــاميم المعمارية التي نراها ونألفها في حياتنا ، لذا أردت تتبع هذا المفهوم بلاغيـا، ثم البحـث عن ظلالـه في عـالم العمـارة الجميـل، إذ وقفـت في بحـث الدكتوراه الذي قدّمته بعنوان ((التوافق العلمي والجمالي بين اللغة والعمارة)) على بعض النماذج المعمارية القليلة لهذا الموضــوع، وشــرعت في هذا البحث ابتغاء التوسّع فيه وابتغاء تقعيده مصطلحًا نقديًا معماريًا، يقع ضمن التوجه العام الذي أسعى لتحقيقه منذ سنوات، ولاسيما عند تدريسي طلبة الماجستير في قسم الهندســـة المعمارية، ألا وهو الاعتماد على ما ورد في الدرس البلاغي العربي القديم، من أجل إيجاد اتجاه نقدي مــعماري يعتمد على المفاهيم البلاغية العربية الأصيلة.

المقدمة:

فإن هذا الموضـــوع تمتد مســـاحته على حقلين معرفيين قد يبدوان للوهلة الأولى أن لا علاقة بينهما البتة، ألا وهما اللغة والعمارة، اللغة بمعناها الواســـع الكبير؛ صـوتا وصـرفا ونحوا وبلاغة ودلالة وكتابة، والعمارة بمعناها الواسـع الكبير أيضا في مستوياتها التركيبية والجمالية والوظيفية، وقد يجد بعض القراء غرابـة في الجمع بين الحقلين، وإلا فمن أين تـأتي العلاقـة بين حقـل معرفي ينصـــب اهتمامه على الكلمة وما يطرأ عليها من تغيير في بنيتها قبل التركيب وبنيتها بعد التركيب وما يصـــحب ذلك من تغير في المعنى، وكل ذلك يميزه الإنسان بحاسة السمع، لأن الكلام في أساس وجوده صوت قبل كل شيء، وإن اللغة لا تتعدى أن تكون أصـواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضـهم كما يقول ابن جني أحد علماء العربية الأفذاذ، وحقل معرفي آخر تكون حاســـة البصـــر هي المقبس الأساس الذي يتحسسه ألا وهو عالم العمارة الجميل؛ كتلة وفضاء وشكلا ولونا وملمسا وتناسبا. إن هذه الغرابة قد تلاشت ولم يعد لها مكان بعد أن قدمت بحثي في الدكتوراه الذي كان يحمل عنوان (التوافق العلمي والجمالي بين اللغة والعمارة) وقد وقفت فيه على الكثير من التفصيلات الكبيرة والصغيرة بين اللغة والعمارة، فأثبتُّ بصورة لا تقبل الشك أن هناك توافقا كبيرا بين الحقلين، وربما وصـــل هذا التوافق إلى حد التطابق في بعض النقاط ولاســـيما في المســـتوى التركيبي الذي تقابل فيه المفهوم الإسـنادي في النحو العربي والمفهوم الإنشـائي في العمارة، ووجدت ظلالا لما يزيد عن ثمانين مصـــطلحا بلاغيا في عالم العمارة الجميل، فضلا عن التوافقات في المستوى الصرفي وفي نظريات نشأة اللغة والعمارة والعوامل التي تؤثر في تطورهما معا. وكانت نتيجة النتائج في هذه الأطروحـة تتلخص بـأن الشـــكل في العمـارة يقـابـل اللفظ في اللغـة، وأن التركيب الإنشـــائي في العمارة يقابل التركيب النحوي في اللغة تأســـيســـا على مفهوم (الإســـناد) في الحقلين، وأن الوظيفة في العمارة تقابل المعنى في اللغة، وفي ذلك كله كلام طويل.

وما هذا البحث الذي عنوانه (حسن التخلص في اللغة والعمارة) إلا أنموذج لهذه التوافقات وكان من الموضوعات التي تناولتها بصورة مقتضبة في بحث الدكتوراه، حاله حال المصطلحات البلاغية الأخرى، وكنت في مرحلة الدكتوراه قد أبلغت لجنة المناقشة في وقتها بأني لو توسعت في كل جزئية من جزئيات هذا البحث لزادت صفحاته على ثلاثة آلاف صفحة ولكني سأترك هذا الأمر إلى بحوث مستقبلية، فكان لي ما أردت بفضل الله ولطفه ومنّته، فنشرت بحثا بعنوان (التشبيه والاستعارة في اللغة والعمارة) في مجلة المورد، ونشرت بحثا آخر بعنوان (الاقتباس والتضمين في اللغة والعمارة) في مجلة قسم الهندسة المعمارية في الجامعة التكنولوجية وهو موجود على شبكة (الانترنت)، واشتركت ببحث ثالث عنوانه (التمثيل الهندسي للجمل التي لها محل من الإعراب والجمل التي لا محل لها من الإعراب) في مؤتمر كلية التربية في الجامعة المستنصرية الذي عقد في العام الماضي (٢٠١١- ٢٠١٢) ، وهذا هو بحثي الرابع في هذا المضمار، ولدي بفضل الله عز وجل مشاريع كثيرة لبحوث مستقبلية تقع ضمن هذا المفهوم العام وهو التوافق بين اللغة والعمارة.

ولعل سائلا يسأل ما الغاية المنتظرة من بحوث يسير نهجها على هذه الشاكلة، حتى لو أثبتنا أن هناك علاقة بين هذين الحقلين، والجواب على ذلك يكون على النحو الآتي: إن أهميّة هذا البحث تكمن في ضرورة إطلاع المعمار المبدع الذي يسعى إلى خلق خصوصيّة في نتاجه المعماري على خزائن اللغة العلمية والجمالية لأن ذلك سينعكس بطريقة ما على نتاجه المعماري سواء أكان ذلك الانعكاس صادرا عن قصد ووضوح أم كان عفويّا بسبب تشبّع أفكاره وروحه بمفاهيم اللغة والبلاغة والأدب.

والبحث من بعد ذلك يفترض وجود قدرات فنيّة وعلميّة ولغوية لدى بعض المبدعين الذين يمتازون بالموسوعيّة في تحصيلهم المعرفي، تمكّنهم من الوصول إلى نوع من الترجمة التي هي ليست في مجال ترجمة لغة منطوقة أو مقروءة إلى لغة أخرى، بل من نوع ترجمة فن جميل إلى فن جميل آخر، وذلك بتفاعل يصعب تفسيره لكثرة العناصر الداخلة فيه، وتشمل الذكاء والحس الفني

والبيئة والعقيدة فضلا عن الرصيد المعرفي وغير ذلك من العناصر الداخلة في تكوين شخصية المبدع القادر على هذا النوع من الترجمة، عند ذلك نتمكن من ضمان حصول نوع من القدح الذي تنصهر بحرارته المفاهيم العلمية والقيم الجمالية المستقاة من التركيب اللغوي لتنسبك بقالب جديد يحمل قيما جمالية وأغراضا وظيفية أخرى، وقد يكون هذا الجديد ببعدين كلوحة فنّية أو ثلاثة أبعاد كما هو الحال في النحت والعمارة.

وقبل الدخول إلى صلب الموضوع من تعريف للمصطلح أود الإشارة إلى أن هذا المصطلح يكاد يتطابق معناه اللغوي مع معناه الاصطلاحي، وهذا لا يكون مألوفا في معظم المصطلحات البلاغية، ولكن ذلك قد يؤدي إلى إشكال في الفهم، ويعود هذا الإشكال إلى أننا يمكن أن نطلق هذا المصطلح بمفهومه اللغوي على الكثير من السلوكيات المادية أو الثقافية، فالذي يقود سيارته بسرعة معينة ويظهر له فجأة حيوان يسير ليقطع الطريق فيتخلص منه بطريقة ذكية من دون أن يحصل حادث نقول عن ذلك هذا حسن تخلص، والدبلوماسي الذي يستطيع أن يفاوض الخصم من غير أن يعطي تنازلات أمام الضغوط التي يسلطها الطرف الآخر نستطيع كذلك أن نسمي هذا السلوك (حسن تخلص) ونستطيع أن نعدد الكثير من الأمثلة لنثبت صحة هذا الأمر، وإذا أردنا الحقيقة فهو أمر واضح لا يحتاج إلى إثبات، لأن حسن التخلص سلوك إنساني فطري وجد مع الإنسان منذ أن خلق على هذه الأرض.

لاشك في أن مصطلح (حسن التخلص) من المصطلحات المعروفة في البلاغة وقد ذكره البلاغيون في مؤلفاتهم وكذلك المفسرون، أما لغة فـ (خلص الشيء بالفتح يخلص خلوصا و خلاصا إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم)[١]، (وخَلَّصَ اللهُ فُلاناً نَجّاهُ بَعْدَ أَنْ كانَ نَشِبَ كأَخْلَصَه فتَخلَّصَ كما يَتَخَلَّصُ الغَزْلُ إذا الْتَبَسَ)[٢] والتخلّصُ مصدر (تخلّص) على وزن تفعّل، و هذا الوزن يفيد معاني متعددة كما هو معروف في الصرف أوصلها ابن عصفور الى تسعة معان؛ هي التعدية والمطاوعة والحرص على الإضافة وأخذ جزء بعد جزء والختل والتوقع والطلب والتكثير والترك[٣] ، والذي أرجحه من هذه المعاني

في هذا الموضع هو (الطلب) ، فـــ (تخلّص) هنا أفادت طلب الخلاص، فيكون معنى المصــطلح لغويا هو (طلب حســن الخلاص)، ويعرف اصــطلاحا بأنه: (حسن الانتقال من غرض إلى غرض آخر في القصيدة)[٤] وقيل هو: (استطراد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشــدة الممازجة والانســجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد)[٥] وقد يســمى (براعة التخلص) التي عرّفها ابن أبي الإصــبع المصــري بأنها: (امتزاج ما يقدّمه الشــاعر من البســط، أما المدح أو الذم، أو غيره من نسـيب أو وصــف أو أدب أو زهد أو فخر أو مجون، أو غير ذلك من الفنون بأول بيت من المدح، وقد يقع ذلك في بيتين متجاورين، وقد يقع في بيت واحد)[٦]. وهذا يعني أنه (لا يشــترط أن يتعيّن المتخَلّص منه بل يجري ذلك في أي معنى كان ... ولكن الأحسـن أن يتخلّص الشـاعر من الغزل إلى المدح.)[٧]، وعرّف أيضــا بأنه: (أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول ســببا إليه - فيكون بعضــه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ويسـتأنف كلاما آخر بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا وذلك مما يدل على حذق الشـاعر وقوة تصــرفه من أجل أن نطاق الكلام يضــيق عليه ويكون متبعا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حســب إرادته وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر)[٨].

وقبل التمثيل لهذا الضــرب الجميل من الفنون البلاغية، لابد من الإشــارة إلى أن هذا الفن ينســب إلى المتأخرين من شــعراء العرب وإن كان للأوائل الفضل في فتح بابه.[٩]

إن التأمل في هذه التعريفات لـــ (حســن التخلّص) يؤدي إلى تمييز ضربين منه، الأول؛ أن يتخلص الشاعر من غرض شعري إلى غرض شعري آخر من غير أن يمر بغرض ثالث بينهما، لذلك قيل (كأنهما أفرغا في قالب واحد) وغالبا ما يكون الغرض الأخير من القصيدة هو المدح، لذا يكون الانتقال

من الغزل الى المدح، والثاني؛ ان ينتقل الشـــاعر من غرض الغزل الى غرض ثان مثل الحكمة ثم ينتقل الى المدح، وربما يفضـــل هذا الضـــرب من (حســـن التخلّص) عندما يكون الممدوح له من الجلال ما لا يســتحســن الشــاعر معه أن ينتقل من الغزل إلى المديح مباشــرة، كأن يكون الممدوح رســول الله صــلى الله عليه وسلم، وسنمثل للضربين معا بإذن الله تعالى.

أمثلة بلاغية في (حسن التخلّص)

من الأمثلة على النوع الأول قول أبي نواس يمدح الخصـــيب [١٠] والي مصر بقوله [١١]:

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تســـير
أما دون مصر للغنى متطـلب بلى إن أسبـــاب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بـــوادر جرت فجرى في إثرهـــن عبير
ذريني أكثّر حاسديك برحـلةٍ إلى بلد فيه الخصـــيبُ أميرُ
إذا لم تزر أرض الخصيبِ ركابنا فأيَّ فتى بعد الخصـــيب نزور
فما حازه جود ولا حل دونـــه ولكن يصير الجود حيـث يصير
فتى يشتري حسن الثناء بمـاله ويعلم أن الدائرات تـــدور

نلاحظ أن الشـاعر انتقل بطريقة رشـيقة سـريعة من الغزل والنسـيب إلى المديح في بيت شعري واحد وهو البيت الرابع:

ذريني أكثر حاسديك برحـلة إلى بلد فيه الخصـــيب أمير

وهذا من حسـن التخلص الذي جاء في بيت واحد. (ومن المخالص المسـتحسـنة لأبي تمّام قوله:

لا والذي هوَ عالمٌ أنَّ النـــوى مرٌّ، وأنَّ أَبَـا الحُسَيْنِ كَرِيمُ
مازُلْتُ عَنْ سَنَنِ الوِدَادِ ولا غَدَتْ نفسي على ألفٍ سواكَ تحومُ) [١٢]

وهذا كالذي سبقه جاء حسن التخلص فيه ببيت واحد كما هو بيّن.

ومن المخالص الجميلة أيضا ما جاء في شعر أبي العلاء المعري وهو قوله:

(ولو أن المطي لها عقولٌ وجدك لم نشدّ بها عقـــــالا
مواصلةَ بها رحلي كأنـــــي عن الدنيا أريد بها انفصالا
سألْنَ فقلْتُ مَقْصِدُنا سعيدٌ فكانَ اسْمُ الأمِيرِ لهُنّ فـالا

ويعد هذا التخلص من روائع النظم لما تضمنه من تورية في اسم (سعيد) إذ كان هذا هو اسـم الأمير وأن العرب تتفاءل بالاسـم الحسـن.)[١٣] ولابن الحجاج[١٤] قصيدة يضمنها هذا الفن الرفيع يقول فيها:

ألا يا ماء دجلة لسـت تـدري بأني حاسد لك طول عمـري
ولو أني استطعت سكرت سكرا عليك فلم تكـن يا ماء تجري
فقال الماء قل لـي كـل هذا بم استوجبته يا ليـت شعري
فقلت له لأنـك كل يـوم تمر على أبي الفضل بن بشـــر
تـراه ولا أراه وذاك شـيء يضيق عن احتمالك فيه صبري

وهذا من التخلص البديع الذي اسـتطاع الشـاعر أن ينتقل فيه من غرض شعري حواري مفترض مع النهر إلى المديح مديح أبي الفضل ابن بشر.

كل الأمثلة السابقة تنتمي الى الضرب الأول من حسن التخلص الذي قلت عنه بأنه انتقال من غرض شعري إلى غرض شعري آخر بصورة مباشرة.

أما الضرب الثاني من حسن التخلص فهناك قصيدتان أحسبهما أنموذجين مثاليين له، وهما قصـيدة (بردة المديح) للبوصـيري، وقصـيدة (نهج البردة) لأحمد شـوقي، إذ انتقل الشـاعران بعد المقدمة الغزلية إلى غرض آخر وهو (الحكمة) قبل أن ينتقلا إلى الغرض الأساس من القصـيدتين وهو مدح الرسـول المصـطفى ﷺ. لاشك في أن التوافق الكبير بين القصـيدتين جاء لسـبب معروف وهو معارضة أحمد شوقي للبوصيري:

القصيدة الأولى: بردة المديح للبوصيري[١٥]:

هذه قصيدة مكونة من مئة وستين بيتا، نظمها أبو عبد الله البوصيري في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٦]، وبيّن ذلك في آخر بيت فيها إذ يقول:

أبياتها قد أتت ستين معْ مئةٍ فرّج بها كربنا يا واسع الكرم

وقد سار على نهج الأقدمين في المقدمة الغزلية في القصيدة، وامتدت هذه المقدمة إلى أحد عشر بيتا، يبدأ بقوله:

أمن تذكر جيران بذي ســـلم مزجت دمعا جـرى من مقلة بـدم
أم هبّت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرقُ في الظلماء من إضَمِ
فما لعينيك إن قلت اكففا همـتا وما لقلبك إن قلت استفق يهمِ

ثم يواصـل هذه الأبيات الجميلة الرقيقة، ويتخلص منها تخلصـا رائعا، لا ينتقل فيه إلى المديح كما هو حال الذين تقدّم ذكرهم، و هذا على ما أرى أمرٌ مقصـود أراده الشـاعر، وأفسـره بأن الانتقال من الغزل إلى المديح لا يليق مع مقام النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لذلك تخلّص الشاعر إلى غرض يعد من الأغراض المحببة إلى النفس البشرية في الأعم الأغلب، وهو يتوسط الأغراض من حيث تـأثيره الانفعـالي على المتلقي، ألا وهو غرض الحكمـة، إذ يقول في آخر بيت غزلي مخاطبا لائمه في الهوى العذري :

محضتني النصح لكن لست أسمعه إن المحـبّ عن العذّالِ في صمم

ثم يقول مبتدئا بمقطع الحكمة متخلصا من الغزل:

إني اتـهمت نصيح الشيب في عذَلٍ والشـيب أبعد في نصح عن التهمِ
فإن أمّارتي بالسـوء ما اتعظـت من جهلها بنذير الشيب والهرم

ويمضي في أبيات الحكمة قائلا:

فلا ترُم بالمعاصي كسر شهوتـها إنّ الطعام يقوّي شهوة النهـمِ

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حبّ الرَّضاع وإن تفطمه ينفطـمِ

ثم يخاطب نفسه بعد خمسة عشر بيتا من الحكمة لينهي أبياتها قائلا:

أمرتك الخيرَ لكن ما ائتمرت به وما استقمت، فما قولي لك استقمِ
ولا تزوّدت قبل الموتِ نافلـةً ولم أصلّ سوى فرض ولم أصمِ

ثم يأتي بيت (التخلص) وما أروعه من بيت، يتخلص فيه من الحكمة ليدخل حيّز المديح فيقول:

ظلمتُ سنّةَ من أحيا الظلامَ إلى أن اشتكت قدماه الضرَّ من وَرَمِ
وشدّ من سغبٍ أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحًا مترف الأدمِ
وراودته الجبال الشمُّ من ذهبٍ عن نفسه فأراها أيّمـــا شمـــمِ

ثم يستمر بالمديح مديح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى نهاية القصيدة على مدى أكثر من مئة وثلاثين بيتا، يتناول فيها كل محامد الرسول ﷺ.

القصيدة الثانية: نهج البردة لأحمد شوقي(١٧)

سميت هذه القصيدة بـــ (نهج البردة) لأن أحمد شوقي سار فيها على نهج البوصيري في قصيدته (بردة المديح) المذكورة آنفا، إذ جاءت قصيدة شوقي على حرف الروي نفســـه (الميم) وعلى بحر البســـيط الذي نظمت عليه بردة البوصيري، وإذا كانت قصيدة البوصيري امتدت إلى مئة وستين بيتا فإن قصيدة شوقي بلغت مئة وتسعين بيتًا، وهذا لا شك في أنه يدل على قدرة الشاعرين الفائقة على هذا النفس الطويل في النظم، ويفتتح شوقي بردته بالغزل قائلا:

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي بالأشهر الحـرمِ
رمى القضاء بعيني جؤذرٍ أسدًا يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجمِ
لمّا رنا حدثتني النفس قائـلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

هذا الغزل الرقيق الذي يهيم به السامع يعز على الشاعر أن ينتقل منه إلى غرض آخر إلا إذا كان يمتلك عبقرية فذّة مثل أحمد شوقي ولاسيما إذا علمنا أن هذه المقدمة الغزلية تمتد إلى أربع وعشـــرين بيتًا أودعها ما أودعها من رقيق الألفاظ وجميل المعاني. وربما تجلّى هذا الغزل ووصل إلى ذروته في قوله:

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنمِ

ثم ينهي المقدمة الغزلية بقوله:

لم أغشَ مغناكِ إلا في غضون كرًى مغناك أبعد للمشـــتاق من أرمِ

ثم يتخلّص في البيت الخامس والعشـــرين من الغزل إلى الحكمة مبتدئا بموعظة النفس وتحذيرها من الدنيا وما تخفيه من مصاعب ومصائب فيقول:

يا نفس دنياك تخفي كل مبــكيةٍ وإن بدا لك منها حسن مبــتسمِ

وهـذا التخلص يمكن النظر إليـه من جـانبينِ مختلفين؛ الأول: إن هـذا الانتقال الحاد بين الغزل ومبكيات النفوس لا يعد تخلصـــا، لأن التخلص أوجب النقاد فيه أن لا يشـعر السـامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشـدة الممازجة والانسـجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد كما تبين في أحد تعريفات (حسن التخلص) السابقة.

وتأسيسا على ذلك فقد عد بعض النقاد هذا الانتقال عند شوقي (اقتضابا) وليس تخلصًا [١٨]، على اعتبار أن الاقتضاب هو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى آخر من غير تعلق بينهما[١٩] كما سيوضح لاحقًا.

والجانب الثاني: هو أن الإنســـان بطبيعته يخاف من المجهول الذي لا يعلمـه، فمهمـا بلغت فرحتـه ونعيمـه يظل يتذكر أن هذا النعيم زائل لا محـالـة ولاسـيما إن كان عاقلا حكيما ولا أظن أحمد شـوقي إلا من هذه الفئة من الناس، فكأنه نقل هذا الحال الذي يعد من لوازم الحياة البشـــرية إلى قصـــيدته في هذا الموضـــع تحديدا ليكون مقدمة للحكمة التي ســيودعها في أبياته اللاحقات، فإذا

نظرنا إلى المسألة بهذا المنظار عند ذلك سيكون الانتقال تخلصا حسنا من الغزل إلى الحكمة. ويستمر شوقي بذم الدنيا وما فيها فيقول مخاطبا نفسه:

طورًا تمدك في نعمى وعافيةٍ وتارةً في قرار البؤس والوصمِ
كم ضلّلتك، ومَنْ تحجب بصيرته إن يلقَ صابًا يَرِد، أو علقمًا يسُمِ

ثم يستمر ليقول أجمل بيتين من أبيات الحكمة في هذه القصيدة (على ما أرى) وهما قوله:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوّم النفس بالأخلاق تستقمِ
والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرّها في مرتع وخمِ

ثم يتداخل لون الحكمة مع لون المديح تداخلا لا أقل من تداخل ألوان الطيف المتجاورة، إذ يقول:

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصمِ
ألقي رجائي إذا عزّ المجيرُ على مفرّج الكرب في الدارين والغممِ

إلى أن يقول مبتدئا مدحه رسول الله ﷺ:

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنمِ
فكل فضل وإحسان وعارفةٍ ما بين مستَلَمٍ منه ومُلتَزَمِ
علقتُ من مدحه حبلا أعزُّ به في يوم لا عزَّ بالأنساب والُّلحمِ

ثم يستمر إلى نهاية القصيدة مادحًا الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه، متنقلا من موضوع إلى آخر كما فعل البوصيري من قبل.

المصطلحات ذات الصلة بـ (حسن التخلص):

وردت مصطلحات في كتب البلاغة تمت بصلة مع حسن التخلص مع اختلاف يسير في المفهوم الدقيق للمصطلح، ومن هذه المصطلحات:

أولا: الاستطراد:

وقد وردت فيه عدة تعريفات، إذ قيل عنه (أن يتطرق من كلام إلى كلام آخر بوجه يصل ما بينهما ويكون الكلام الثاني هو المقصود كخروج الشاعر من السب إلى المدح بمعنى يتعلق بالطرفين مع أنه قصد المدح)[٢٠]. وقيل هو: (الاستطراد ذكر الشيء في غير محله مع غيره لمناسبة بينهما)[٢١]، ويأخذ الاستطراد معنى آخر فهو (أن يري الشاعر أنه يريد مذهباً وهو إنما يريد غيره فإن قطع ورجع إلى ما كان فيه فهو الاستطراد)[٢٢]. ونلاحظ أن هذه التعريفات تتباين فيما بينها، فمنها ما يتطابق مع تعريف (حسن التخلص) لأنهما يحملان معنى واحدا وهو خروج الشاعر من غرض إلى غرض آخر، وقد يختلفان في كون الاستطراد يعني عودة الشاعر إلى الغرض الأول الذي بدأ به بعد أن يخرج منه إلى غرض آخر، وهذا موجود في النثر كذلك وربما كان الجاحظ أبرز الذين تميّزوا بالاستطراد في أساليب كتاباتهم. ومن أمثلة الاستطراد قول أبي تمام في وصف فرس:

ولو تراه مشيحاً والحصا زيم على السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت إنْ لم تثبَّت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

فقد خرج من وصف الفرس إلى ذم رجل اسمه عثمان.[٢٣] وإذا ما أمعنا النظر في المصطلحين وجدنا فرقا آخر بينهما، ففي (حسن التخلص) يكون الغرض الأخير هو المقصود عند الشاعر فيمهد له بغرض آخر قبل الدخول فيه، أما في الاستطراد فكأن الغرض الثاني الذي يخرج إليه الشاعر يأتي عرضا دون قصد منه، لذا كان التعريف الأخير للاستطراد أكثر مناسبة من سواه.

ثانيا: الاقتضاب:

(الاقتضاب في اللغة الاقتطاع والارتحال وفي العرف هو الانتقال مما ابتدأ به الكلام إلى ما يلائمه) [٢٤] وقيل عنه إنه: (ضد التخلص وذاك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول) [٢٥] ، وعرّف أيضا: (أن يقطع الشاعر

التشـــبيب ويأخذ في المديح بلا تلفيق بينهما) [٢٦] ومن أمثلة الاقتضـــاب قول الشاعر [٢٧]:

لو رأى الله أن في الشيب خيراً جاورته الأبرار في الخلد شيباً
كل يوم تبدى صروف الليالـي خلقاً من أبى سعيد غريباً

فعند التأمل بين البيتين لا نجد علاقة بين معنى البيت الأول ومعنى البيت الثاني.

ثالثا: حسن المطلب:

تكلم السـيوطي على حسـن التخلص والمصـطلحات التي تقرب منه في المعنى، فذكر فصـــل الخطاب والاســـتطراد، ثم ذكر أن ما يقرب من حســـن التخلص حســـن المطلب وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوســـيلة كقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[٢٨].

رابعا: فصل الخطاب:

وردت عبارة (فصـــل الخطاب) في قوله تعالى:﴿ وَشَـــدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْـــلَ الْخِطَابِ﴾[٢٩] وصـــفًا لداود عليه الســـلام، قال الزمخشـــري: (فصـــل الخطاب: البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه) [٣٠]، وقيل هو (عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال بحيث لا يختلط شيء بشيء وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام وهذا معنى عام يتناول جميع الأقســـام والله أعلم) [٣١] وقيل إن فصـــل الخطاب (الذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه (أما بعد) لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شـــأن بذكر الله وتحميده فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله أما بعد) [٣٢] وقيل إن لفظة (هذا) من الفصـل في الكلام كقوله تعالى: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَـــارِ {٤٥} إِنَّا أَخْلَصْـــنَاهُم بِخَالِصَـــةٍ ذِكْرَى الدَّارِ {٤٦} وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ {٤٧} وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ {٤٨} {٤٩})[٣٣] إذ ذكر الأنبياء عليهم الســـلام ثم لما أريد باب آخر في الكلام وهو ذكر الجنة وأهلها قال تعالى (هَذَا ذِكْرٌ) ثم قال: (وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْـــنَ مَآبٍ) ثم تكرر الأمر في قوله تعالى: (هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ

لَشَرَّ مَآبٍ)[٣٤]، يقول ابن الأثير: وهذا من فصل الخطاب الذي هو ألطف موقعا من التخلّص.[٣٥] (وقد وردت لفظة هذا في الشعر إلا أن ورودها فيه قليل بالنسبة إلى الكلام المنثور فمن قول الشاعر المعروف بالخباز البلدي في قصيدة أولها

هذا وكم لي بالجنينة سكرة أنا من بقايا شربها مخمور
باكرتها وغصونها مغروزة والماء بين مروزها مذعور
في ستة أنا والنديم وقينة والكأس والمزمار والطنبور)[٣٦]

خامسا: صحة النسق:

هذا مصطلح آخر لا يبتعد معناه عن معاني المصطلحات السابقة، ويقصد به أن الشاعر (يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح فإن المحدثين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم في النسيب متعلقا بكلامهم في المدح لا ينقطع فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة وإنما كان أكثر خروجهم من النسيب إما منقطعا وإما مبنيا على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها ومما يستحسن من خروج المحدثين قول أبي عبادة البحتري يصف الروض:

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أرفلت تليها بتلك البارقات الرواعد)[٣٧]

هذا مصطلح (حسن التخلص) وهذه هي المصطلحات التي تقترب منه وربما تتطابق معه، وهذا أمر أراه واضحا بيّنا في ما كتبه علماء البلاغة عن تلك المصطلحات، والحق أن هناك صعوبة في عزل هذا المصطلح البلاغي عن بقية المصطلحات التي تقترب منه من حيث الدلالة، ولاسيما عند من لم يقف بصورة دقيقة عند معاني المصطلحات البلاغية المتعددة، فعلى سبيل المثال إن (أسلوب الحكيم) وهو من المفاهيم البلاغية المعروفة، إذا ما أمعنا النظر فيه سنجده نوعا من (حسن التخلص)، إذ يعرّفه البلاغيون بأنه العدول (في الجواب

عما يقتضيه السؤال تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك)[٣٨]، وقيل عنه أيضا (عبارة عن ذكر الأهم تعريضا بالمتكلم على تركه الأهم)[٣٩] وهذا التعريف يشير إلى أن المجيب يتخلص من الإجابة المفترضة على سؤال معروض إلى إجابة أخرى فيها فائدة غفل عنها السائل هي أجدر مما يريده السائل. وهذا يعني أن (أسلوب الحكيم) يمثل حسن تخلص بمعناه اللغوي وليس الاصطلاحي، لذلك ليس من الصحيح وضعه ضمن هذه المجموعة من المصطلحات. ولكي أوضح هذا التداخل والتقارب في معاني هذه المصطلحات أسوق أقوالا للعلماء في هذا الشأن، إذ قيل: (ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص كقول القائل بعد حمد الله أما بعد قيل وهو فصل الخطاب)[٤٠]، وهذه عبارة جمعت ثلاثة مصطلحات مرة واحدة؛ الاقتضاب والتخلص وفصل الخطاب، ومن تعريفات (فصل الخطاب) أنه (تخليص الكلام إلى المقصود مع قرب الملاءمة)[٤١] وهذا تعريف يجمع التخلص مع فصل الخطاب، ويقول السيوطي: (ويقرب من الاستطراد حتى لا يكادان يفترقان حسن التخلص وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما)[٤٢] (وقال بعضهم الفرق بين التخلص والاستطراد أنك في التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية وأقبلت على ما تخلصت إليه وفي الاستطراد تمر بذكر الأمر الذي استطردت إليه مرورا كالبرق الخاطف ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده وإنما عرض عروضا)[٤٣] ويقرب من حسن التخلص الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطا للسامع مفصولا بـ (هذا) كقوله تعالى: في سورة ص بعد ذكر الأنبياء (هذا ذكر وإن للمتقين... الآية)[٤٤] ، وقيل أيضا إن (حسن التخلص) يقرب من (حسن المطلب).[٤٥]

وهذا يدل دلالة واضحة على ما ذهبت إليه آنفا من تقارب معاني المصطلحات وعسر الفصل بينها، ولكن ذلك لا يعفيني وأنا بصدد التقعيد لمصطلح معماري مستفيدا مما وجدته من ثراء علمي وجمالي في البلاغة العربية، لا يعفيني من رسم الحدود الواضحة بين هذه المصطلحات تمهيدا

للترجمة التي ذكرتها في مقدمة البحث، أي نقل المفهوم البلاغي الذي يدركه العقل بعد أن تتحسسه حاسة السمع إلى مفهوم معماري يدركه العقل بعد أن تتحسسه حاسة البصر وربما الحواس الأخرى. ويمكن صياغة الاستنتاجات مما سبق ذكره على النحو الآتي:

الاستنتاج الأول: إن المعنى الأبرز الذي يظهر في مصطلح (حسن التخلص) والمصطلحات الأخرى، والذي يعدّ القاسم المشترك بينها جميعا هو مفهوم (الانتقال)، فحسن التخلص قيل في تعريفه: (حسن الانتقال من غرض إلى غرض آخر) وصحة النسق قيل عنها: (...وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه....) وورد في تعريف فصل الخطاب: (...فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق) وعن حسن المطلب قيل: (حسن المطلب وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة) وفي الاقتضاب قيل: (الاقتضاب في اللغة الاقتطاع والارتحال وفي العرف هو الانتقال) وورد في تعريف الاستطراد: (أن يتطرق من كلام إلى كلام آخر). والانتقال بمعناه المجرد قد يكون على الحقيقة وقد يكون على المجاز، ولا شك في أن معناه الوارد في تلك المصطلحات يحمل على المجاز، فانتقال الشاعر من غرض إلى غرض هو انتقال معنوي لا مادي، ونستطيع أن نستعير هذا المعنى المجرد إلى عالم العمارة فنجعله انتقالا حسيا، أي من حيز مكاني إلى حيز مكاني آخر، لذلك وتأسيسا على التعريفات السابقة سأمثل مفهوم الانتقال على هيأة مخططات على النحو الآتي، تمهيدا لعرض ظلالها في عالم العمارة الجميل:

أولا: حسن التخلص، وفيه نوعان كما ذكرنا

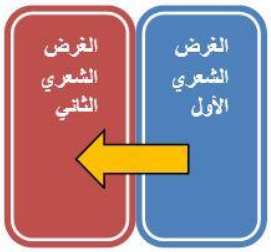

النوع الأول: وهو ما يمثّل انتقال الشاعر من الغزل إلى المديح مباشرة من دون غرض ثالث، مثاله قول أبي نواس وما أعقبه من أمثلة

الشكل (١ أ) – المصدر: الباحث

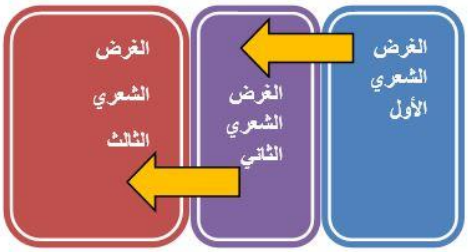

النوع الثاني: وهو ما يمثّل انتقال الشاعر من الغزل إلى غرض ثان ثم إلى المديح، مثاله بردة المديح ونهج البردة

الشكل (١ ب) – المصدر: الباحث

ثانيا: الاستطراد، ويمكن تمثيله على النحو الآتي:

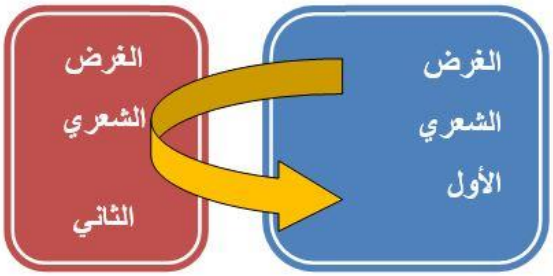

الشكل (٢) – المصدر: الباحث

لأن في الاستطراد كما ذكر سابقا كأن الشاعر يريد مذهباً وهو إنما يريد غيره ثم يقطع ويرجع إلى ما كان فيه.

ثالثا: الاقتضاب، سبق أن قلنا إن الاقتضاب (ضد التخلص وذاك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير

ذلك ولا يكون للثاني علاقة بالأول)، ومن هذا التعريف يتبين لنا أمران، الأول؛ إن الاقتضاب يتفق مع حسن التخلص في كونهما يمثلان انتقالا من غرض إلى غرض، ويختلفان في كون الاقتضاب انتقال بين كلامين لا علاقة لأحدهما بالأول، فالفاصل بينهما يمثل فصلا تاما بين المعنيين، أما في التخلص فالأمر ليس كذلك لذلك يمكن أن نجد الانتقال في حسن التخلص يحصل في بيت واحد كما تبين لنا ذلك من قبل، ويمكن تمثيل الاقتضاب على النحو الآتي:

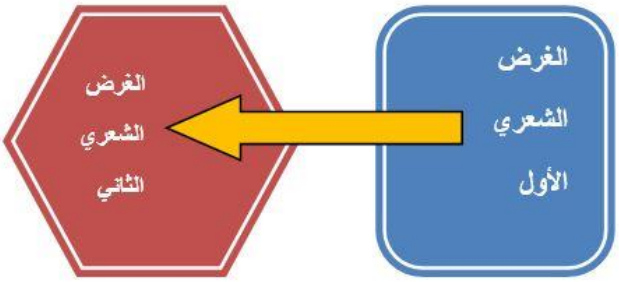

الشكل (٣) يلاحظ اختلاف الغرض الأول عن الغرض الثاني في اللون والشكل تعبيرا عن اختلاف الغرضين كليا، أما في المصطلحات الأخرى فلم يكن الأمر كذلك. (المصدر: الباحث)

رابعا: حسن المطلب، وهو لا يختلف عن حسن التخلص من حيث تمثيله.

خامسا: فصل الخطاب، وهو انتقال من كلام إلى كلام مفصولا بينهما بكلمة (هذا) أو بـ (أما بعد)، ويمكن تمثيله على النحو الآتي:

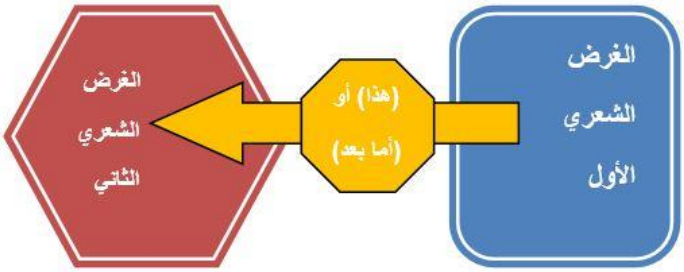

الشكل (٤) – المصدر: الباحث

، وهو لا يختلف في جوهره عن (حسن التخلص)

الاســـتنتاج الثاني: اعتمادا على ما تقدم في الاســـتنتاج الأول، وأخذا بما تتطلبه العمارة في جانبها المادي التنفيذي، يمكن القول إن المعاني المتقاربة جدا بين هذه المصطلحات المذكورة آنفا تدفعنا لاختصار هذه المصطلحات إلى عدد أقل لعدم الحاجة إليها، والذي يسـوّغ ذلك أن أهل البلاغة أنفســهم تقاربت تعريفاتهم لهذه المصـــطلحات حتى أنها تطابقت في بعض الأحيان كما ذكرنا ســـابقا، وســـأقتصـــر في الجانب المعماري من البحث على مفهومين رئيســـين؛ أولهما: (الانتقال) من حيّز مادي إلى حيّز مادي آخر، والثاني: الوظيفة التي تشـــغل هذه الأحياز المتباينة.

الاستنتاج الثالث: ستكون لدي في العمارة أنواع الانتقالات الآتية:

١. الانتقال من حيز وظيفي إلى حيز وظيفي آخر بينهما نوع من التواصـــل المكاني القريب. (يقابل النوع الأول من حسن التخلص)
٢. الانتقال من حيز وظيفي إلى حيز وظيفي آخر ثم الانتقال إلى حيز وظيفي ثالث على أن يمثل الحيّز الثالث الغاية من الانتقال بين هذه الأحياز. (يقابل النوع الثاني من حسن التخلص)

٣. الانتقال من حيز إلى حيّز ثم العودة إلى الحيّز الأول لأنه المكان الرئيس للوظيفة المطلوبة. (يقابل الاستطراد)
٤. الانتقال من حيز وظيفي إلى آخر لا تربطهما أي علاقة. (يقابل الاقتضاب)
٥. الانتقال من حيّز إلى آخر عبر منطقة صغيرة نسبيا تفصل بين الحيّزين لانعدام العلاقة بينهما، على أن يكون الانتقال مقصودا لذاته. (يقابل فصل الخطاب).

هذه هي القاعدة النظرية المستنبطة من الدرس البلاغي العربي التي يمكن توظيفها معماريا، ولها صورها المتعددة في الواقع المعماري، سأبينها في ما يأتي من مادة هذا البحث.

١. النوع الأول من حسن التخلص وتمثله النماذج المعمارية الآتية:

قال البلاغيون إن من حسن التخلص أن (لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد)، والذي نلاحظه في هذه الصور أن الذي ينتقل من المطبخ إلى الفناء أو الممر المجاور للمسبح عبر الباب

٥ / أ

٥ / ب

٥ / ج

الأشكال (٥أ، ب، ج، د) المصدر:
موقع (بيتك) على الشبكة
العنكبوتية

الزجاجية الواســـعة نجده لا ينتقل من الحيّز الأول إلا وقد وقع في الثاني كأنهما فناء واحد لشدة التوافق الوظيفي والجمالي بينهما.

ولزيادة الأمر وضـــوحًا نطلع على هذا التواصـــل بين المطبخ والفناء الخارجي على المخطط الأفقي لهذا المنزل:

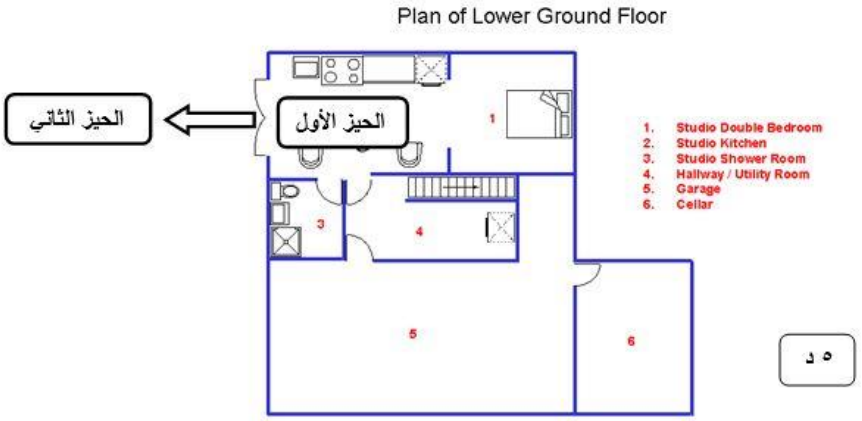

ومن الأمثلة المعمارية الأخرى على هذا النوع من التخلص ما نجده في بعض الطرز المعمارية في بعض المدن العربية والإسلامية؛ منها مدينة عنه في غرب العراق، ومدينة دمشـــق القديمة ومدينة القدس، ومدينة حماة وغيرها، ويظهر فيها الانتقال من فناء عام إلى زقاق عريض لا يفصـــل بينهما إلا قوس في مدخل الزقاق، يمثل انتقالا من حيّز إلى حيّز مع كونهما متصـــلين كأنهما مساحة واحدة.(تنظر الأشكال٦أ،٦ب،٦ج).

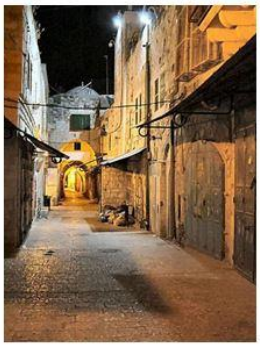

الشكل (٦أ) مدينة القدس القديمة. المصدر: موقع تاريخ فلسطين

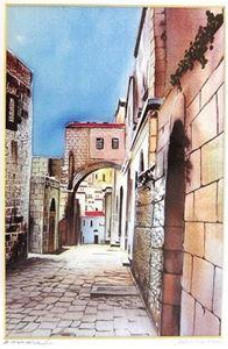

الشكل (٦ب) مدينة دمشق القديمة. المصدر: موقع عكس السير

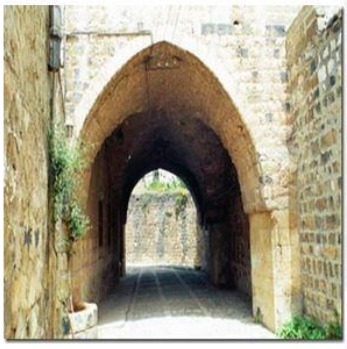

الشكل (٦ج) مدينة حماة القديمة المصدر: موقع عكس السير

٢. النوع الثاني من حســـن التخلص، ويقابله معماريا الانتقال بين أحياز ثلاثة يروم المتنقل من تنقله بلوغ الحيّز الثالث، وهو ما مثلته قصـيدتا البوصـيري وأحمد شـوقي، ولعل أبرز مثال معماري على هذا النوع هو جامعة بغداد في الجادرية، فالانتقال يكون من أجواء المدينة مرورا بالشـــارع الطويل الذي يأتي بعد المدخل، وهو الحيز الوســطي الذي يقابل الغرض الشــعري الثاني في حســـن التخلّص ، وينتهي المســـار إلى الأبنية الخدمية في الجامعة من كليات ومراكز بحثية وما إلى ذلك من المرافق الأخرى، وهذا موضـــح في الصورة الجوية الآتية:

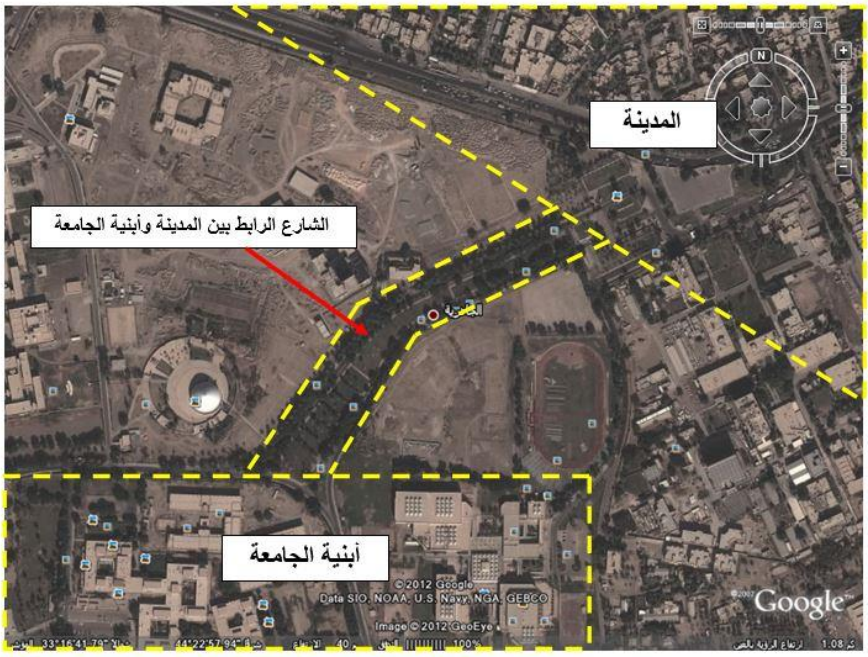

(الشكل ٧) جامعة بغداد في الجادرية، تصميم المهندس المعماري الأمريكي والتر كروبيوس. المصدر: موقع GOOGLE EARTH

ويمكن أن نسوق مثالا آخر على النوع الثاني من حسن التخلّص، وذلك كائن في الطرز المعمارية للبيوت السكنية البغدادية القديمة، وربما وجدت هذه الطرز في المدن العربية الأخرى، وفكرة تصميم البيت كانت تنحصر في الانتقال من الشارع وهو الحيز الأول إلى فناء الدار عبر ممر يسمى (مجازًا)، ويكون هذا الممر معكوفا من في نهايته لكي لا يسمح بالنظر من الشارع إلى داخل فناء البيت الذي يكون مشغولا بساكنيهِ، وليس هذا فحسب فالطرز الحديثة للدور السكنية فيها أثر هذا النوع من التخلص، فمرآب السيارة الذي يمتد من الباب الخارجي للدار وينتهي بالباب الرئيس الداخلي إنما يمثل

حسن تخلص من الشارع العام ليصل ساكن الدار بعد المرور به إلى فنائه، ويمكن توضيح ذلك في المخطط الآتي:

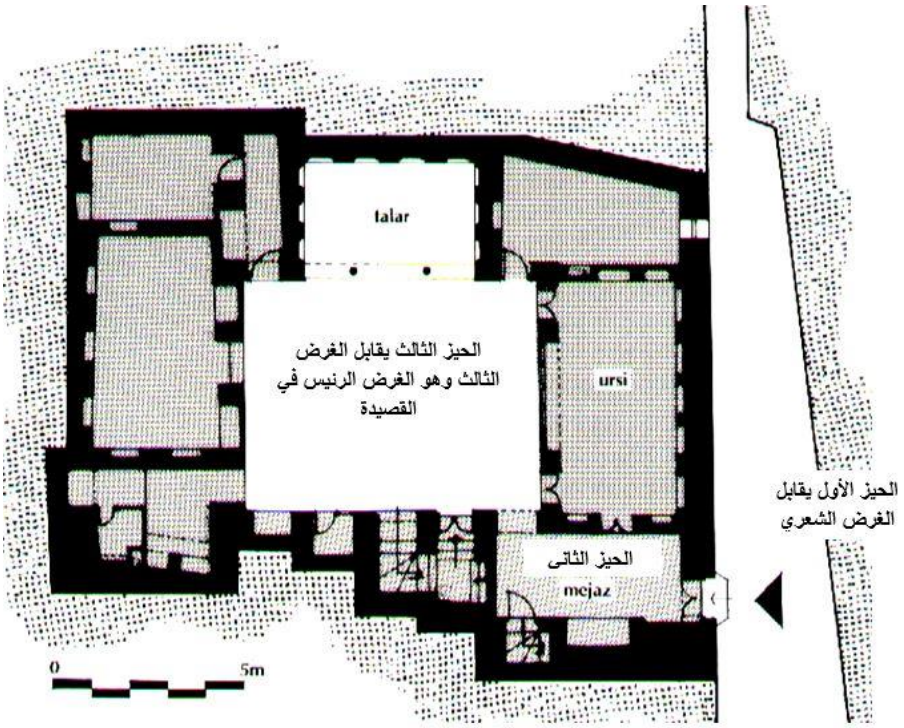

الشكل (٨) يمثل مخطط أفقي لدار سكنية يظهر فيها الممر المنكسر (المجاز) بعد المدخل.

٣. النوع الثالث من الانتقال ويقابل (الاســـتطراد)، و هذا يمكن ملاحظته في الأبنيـة التي تكون حركـة شـــاغليها تبدأ من حيز وظيفي ثم الخروج منـه والعودة إليه، وخير مثال على ذلك هو المدارس الابتدائية أو المتوســـطة أو الإعدادية، فالوظيفة الرئيسة في المدرسة هي التعلم ومكانه قاعة الدرس، أما الســـاحة الوســـطية في المدرســـة فتمثل الحيز الذي يخرج إليه التلاميذ ثم لا يلبثوا أن يعودوا إلى قاعة الدرس. ويمكن توضـــيح هذا المفهوم في المخطط الآتي:

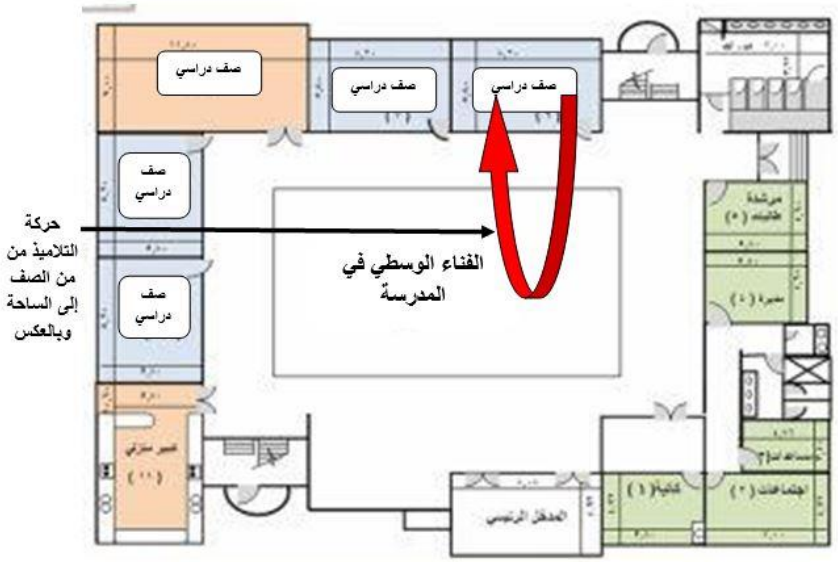

الشكل (٩) يمثّل مخطط أفقي لمدرسة ابتدائية يتوضح فيه انتقال التلاميذ من القاعات الدراسية إلى الفناء الوسطي للمدرسة ثم العودة إلى الصفوف، وهذا يتطابق مع الانتقال من غرض إلى غرض ثم العودة إلى ما بدأ به الشاعر أو الكاتب أو المتكلم، وهو ما أطلق عليه (الاستطراد).(المصدر: موقع إدارة منطقة الباحة)

٤. العربية، وهو الانتقال بين حيّزين لا علاقة وظيفيّة بينهما، وهذا أمر أراه واضحا بيّنا في معظم الأبنية والمنشآت، فالكثير من الوظائف يختلف بعضه عن بعض اختلافا كليا، فغرفة النوم لها وظيفة تختلف عن غرفة المعيشة، وهذه وظيفتها تختلف عن وظيفة المخزن، وغرفة مدير المعمل لها خصائص ومواصفات تختلف كليا عما يجري في الورشة من أعمال فنية، لذلك لا أجد مسوّغا لضرب مثل معماري على هذا النوع من الانتقال. وأستطيع أن أقول إن اللغة كلها والعمارة كلها لا تنفكان عن هذا النوع من الانتقال و هذه من البديهيات المنطقية، لأن الإنسان لا يمكن أن يتحدث في موضوع واحد في حياته ولا أن يعيش في حيز واحد في حياته، فالانتقال والحالة هذه يصبح من المسلمات التي لا تحتاج إلى إيضاح.

٥. النوع الخامس من الانتقال هو ما يقابل (فصل الخطاب)، وهذا النوع يختلف عن سابقيه من الانتقالات وله خصوصية واضحة في العمارة، ويمكن

التوصـل إلى معرفة نظيره في العمارة عندما نسـتذكر أن الفصـل في الكلام يكون بكلمـة واحـدة وهي (هـذا) أو كلمتين وهمـا (أمـا بعـد)، وينبغي أن نسـتحضـر هنا مسـألة مهمة وهي أن الانتقالات التي مرّت بنا في المقابلات السـابقة بين البلاغة والعمارة، كان لكل توقف فيها غرض لغوي أو وظيفة معمارية، أما في (فصـل) الخطاب فلا يمكن لكلمة واحدة أن تؤدي معنى مسـتقلا كما حصـل في الأغراض الشـعرية التي حصـل الانتقال بينها، وهذا يعني أن نبحث عن حيز معماري لا فائدة منه إلا الانتقال من مكان له وظيفة إلى مكان له وظيفة مغايرة تماما عنه ليقابل هذا النوع من الانتقال اللغوي، وإني لأجد أن أنسب صورة معمارية لهذا الأمر هو الـممر القصير في مدخل الدار (صـالة المدخل) (corridor) الذي يمثل مسـاحة ينتقل فيه داخل الدار من الفنـاء الخـارجي (المرآب مثلا) إلى المرافق الـداخليـة للبيـت، كغرفـة الاستقبال أو الصـالة، فيكون مفصـلا حسنا للانتقال بين الأحياز المختلفة من غير أن يؤدي وظيفة أخرى سـوى ذلك، وكذلك الممر الذي يفصـل بين الغرف في الفنادق الذي لا مهمة له سـوى الانتقال من صـالة الفندق إلى كل غرفة فيه، وهو ما يقابل (هذا) أو (أما بعد). لاحظ (الشكلين ١٠أ ، ١٠ب).

الشكل (١٠أ) يمثل مخطط أفقي لدار سكنية تظهر فيها صالة المدخل (corridor) وهي التي تقابل (هذا) و (أما بعد) في فصل الخطاب

الشكل (١٠ب) صورة لممر في فندق تتوزع منه الغرف على جانبيه، وغايته الفصل بين صالة الفندق وغرفه للانتقال عن طريقه إليها.

النتائج والتوصيات: توصل البحث إلى نتائج أجملها في ما يأتي:

١. إن هذه التفاصيل الدقيقة التي توقف عندها علماء العربية ووصفوها وصفا بارعا حتى أنهم ميّزوا بين المعاني التي لا تكاد تظهر إلا بعقل باهر وذوق رفيع، فأعطوا لكل معنى منها مصطلحًا خاصًّا به، ليدل ذلك دلالة واضحة على الجهود الكبيرة التي بذلوها في خدمة اللغة العربية وفي درسها البلاغي على وجه الخصوص. ومن ذلك ما وجدته من وصف دقيق لمصطلح (حسن التخلّص) والمصطلحات ذات الصلة.

٢. إن ما ذكرته آنفا في النتيجة الأولى لا يعني أبدًا إعفاء الباحث الجاد من أن يمتلك نظرة نقدية تؤهله لوضع الأمور في نصابها الصحيح ما وجد لذلك سبيلا، لذا أرى أن لا بأس في أن نسعى لتيسير الدرس البلاغي فنعمد إلى اختصار هذا العدد الكبير من المصطلحات البلاغية، ما دامت تلك المصطلحات تنطوي على معنى عام واحد، فالمصطلحات الستة التي وردت

في هذا البحث، وهي (حسن التخلص، والاستطراد، والاقتضاب، وحسن المطلب، وفصل الخطاب، وصحة النسق) وغيرها إن وجدت كـ (براعة التخلص) كل هذه يمكن أن نطلق عليها مصطلحا واحدا وهو (حسن التخلّص)، ما دامت هناك وشيجة تربط هذه المصطلحات برابط المعنى، وهو (الانتقال من غرض إلى آخر)، ولا بأس بعد ذلك في شرح أنواعه.

٣. أثبت البحث أن اللغة والعمارة حقلان معرفيان يمكن لهما أن يتوافقا في مستويات متعددة، من ذلك توافق اللغة بمستواها البلاغي مع العمارة بمستواها الجمالي.

٤. أثبت البحث أن التفاصيل الدقيقة التي توقف عندها علماء البلاغة فميّزوا على أساسها هذه المعاني فأعطوا لكل معنى مصطلحا، يمكن أن نجد نظائرها في عالم العمارة بكل تفاصيلها.

٥. أثبت البحث أن القاسم المشترك الأكبر بين هذه المصطلحات هو معنى (الانتقال) وإن تعددت صوره، وأن البحث نقل هذا المعنى من مفهومه المجازي في البلاغة إلى مفهومه الحسّي في العمارة فكان لكل مصطلح بلاغي صورته المعمارية المقابلة.

ويوصي البحث بما يأتي:

١. إدخال مادة البلاغة العربية وجعلها مادة أساسية في دراسة العمارة ولاسيما في الدراسات العليا، ابتغاء تزويدهم بخزين معرفي يسعفهم في عملية الإبداع المنتظرة منهم عند وضع تصاميم مشاريعهم المستقبلية.

٢. إدخال بعض المواد الدراسية التي تحمل طابعا فنيا جماليا في أقسام اللغة العربية ، مثل تدريس مادة الخط العربي والتوقف عند جماليات حروفه، ولا بأس في أن يربط أساتذة الأدب والنقد موادهم الدراسية مع بعض المفاهيم الفنية في الرسم والعمارة.

٣. حث طلبة الدراسات العليا في أقسام الهندسة المعمارية وأقسام اللغة العربية على القيام ببحوث مشتركة تتضافر فيها المعاني البلاغية مع المعاني المعمارية لتكون لها نكهتها الخاصة التي لا يمكن الحصول عليها عند دراسة

كل اختصـــاص على انفراد. ولا بأس في أن يكون الإشـــراف مشـــتركا بين أساتذة اللغة وأساتذة العمارة، كما حصل معي إذ أشرف عليّ أستاذان من أســـاتذة البلاغة والعمارة في بحث الدكتوراه، وهما الأســـتاذ الدكتور أحمد مطلوب، والأستاذة الدكتورة غادة موسى رزّوقي.

٤. حث طلبة الدراســـات العليا في أقســـام اللغة العربية على كســـر الرتابة التي أصـــبحت ســـمة مميزة لبحوثهم، وذلك بطرق أبواب المعارف الأخرى، من نحو علوم النفس والاجتماع والفنون، وعلوم الهندســـة، ولاســـيما الهندســـة المعمارية.

الهوامش:

(١) لسان العرب، (خلص) ٧/ ٢٦.
(٢) تاج العروس، (خلص) ١٧/ ٥٦٣.
(٣) ينظر: الممتع في التصريف، ١/ ١٨٣- ١٨٥
(٤) معجم المصطلحات البلاغية، ١/ ٣٩٣.
(٥) خزانة الأدب وغاية الأرب، ١/ ٣٢٩.
(٦) البرهان في إعجاز القرآن أو (بديع القرآن)، ٢٢٩.
(٧) خزانة الأدب وغاية الأرب، ١/ ٣٢٩.
(٨) المثل السائر ج٢/ص٢٤٤
(٩) ينظر: البرهان في إعجاز القرآن أو (بديع القرآن)، ٢٢٩. و خزانة الأدب وغاية الأرب، ١/ ٣٢٩.
(١٠) الخصيب هو والي مصر ولاه الرشيد، وقيل إن سبب توليته أن الرشيد قرأ يوما في المصحف فانتهى إلى قوله تعالى (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) فقال لعنه الله ما كان أرقعه ادعي الربوبية بملك مصر والله لأولينها أخس خدمي فولاها الخصيب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج١/ص١٨٨)
(١١) الأغاني (أخبار أبي نواس) ، ١/١٧٣-١٧٤، وينظر: مرآة الجنان، ٣/ ٣٨، و خزانة الأدب وغاية الأرب، ١/ ٣٣٠
(١٢) ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، ١/ ٣٣٢. والمثل السائر، ٢/ ٢٤٦، وديوان أبي تمّام ١/ ٣٤٢.
(١٣) ديوان أبي العلاء المعري (سقط الزند)، ٢٦٣، وينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، ١/ ٣٣٤.
(١٤) هو الحسين بن أحمد بن الحجاج أبو عبد الله الشاعر الماجن المقذع في نظمه يستنكف اللسان عن التلفظ بها والأذنان عن الاستماع لها وقد كان أبوه من كبار العمال وولى هو حسبة بغداد في أيام عز الدولة ..... توفي في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. البداية والنهاية ١١/ ٣٢٩.
(١٥) محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله الصنهاجي شرف الدين أبو عبد الله الدلاصي ثم البوصيري المتوفى سنة ٦٩٥ خمس وتسعين وستمائة، وأَبُو صِير قريةٌ كبيرةٌ بالفَيُّوم عامرةٌ ، من تصانيفه (ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد)، والقصيدة الهمزية في المدائح النبوية المسماة بأم القرى، والكواكب الدرية في مدح خير البرية المشهورة بقصيدة البردة، الكلمة الطيبة والديمة الصيبة، وقيل: شعره في غاية الحسن واللطافة عذب الألفاظ منسجم التراكيب. (ينظر: هدية العارفين، ٦/ ١٣٨، وفوات الوفيات، ٢/ ٣٤٣، وتاج العروس، ١٠/ ٢٠٥).
(١٦) ينظر في هذه القصيدة: في المنهج النقدي، ١٤١، بردة المديح المسماة الكواكب الدريّة في مدح خير البرية، شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، شرح ألفاظها الشيخ يوسف النبهاني، دار الحديث الكتانية. (لا.ت)
(١٧) أحمد شوقي ، الأعمال الشعرية الكاملة ، ١/ ١٩٠-٢٠٨.

(١٨) ينظر: في المنهج النقدي، ١٥٨.

(١٩) ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، ١/ ٣٣١.
(٢٠) التسهيل لعلوم التنزيل، ١/ ١٣-١٤.
(٢١) حاشية الجمل على شرح المنهج، ٤٧٢/٣.
(٢٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٢ / ٩٠١.
(٢٣) ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر، ١/ ٣٩٩.
(٢٤) دستور العلماء ١٠٥/١. وينظر: معجم مقاليد العلوم، ١/ ١٠٩.
(٢٥) المثل السائر، ٢/ ٢٤٤.
(٢٦) التعاريف، ١/ ٥٨٥.
(٢٧) بلغة السالك، ١/ ١١.
(٢٨) الفاتحة، ٥. ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢٩٣/٢.
(٢٩) ص، ٢٠.
(٣٠) الكشاف ٤/ ٨٢.
(٣١) التفسير الكبير، ٢٦/ ١٦٤.
(٣٢) المثل السائر ٢٦٠/٢. وينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٤٩٢/١،
(٣٣) سورة ص، ٤٥-٤٩.
(٣٤) سورة ص، ٥٥.
(٣٥) ينظر: المثل السائر، ٢/ ٢٦٠.
(٣٦) م.ن. ٢/ ٢٦١.
(٣٧) سر الفصاحة ١/ ٢٦٨ .
(٣٨) كتاب الكليات ج١/ص٥٠١
(٣٩) التعريفات ج١/ص٣٩
(٤٠) الإيضاح في علوم البلاغة ٣٩٤/١.
(٤١) معجم مقاليد العلوم ١٠٩/١.
(٤٢) الإتقان في علوم القرآن ٢٩١/٢.
(٤٣) م. ن. ٢/ ٢٩٢.
(٤٤) ينظر: م. ن. ٢/ ٢٩٢.
(٤٥) ينظر: م. ن. ٢/ ٢٩٣.

المصادر والمراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحـــ: سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٢. أحمد شوقي (الأعمال الشعرية الكاملة) ، دار العودة، بيروت، (لا.ت.)
٣. الأغاني (أخبار أبي نواس)، أبو الفرج الأصبهاني، تحـــ :علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، لبنان، (لا.ت.).
٤. الإيضـــاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، مراجعة: الشـــيخ بهيج الغزاوي، ، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٥. بردة المديح المسماة بالكواكب الدريّة في مدح خير البريّة، نظم الإمام شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، شرح ألفاظها الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني، دار الحديث الكتانية، بيروت (لا.ت).
٦. البرهان في إعجاز القرآن، ابن أبي الإصـــبع المصـــري، تحـــــ: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، منشـــورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
٧. بُلْغة السالك لأقرب المسالك، أحمد الصاوي، تحـــ: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٨. تاج العروس، محمد مرتضـى الحسيني، تحـــــ: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (لا.ت.)
٩. التســـهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٤، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٠. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني(ت٨١٦هـــ)، تحـــ: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
١١. التفســـير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشـــافعي (ت٦٠٤ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
١٢. التوقيف على مهمات التعاريف التعاريف، محمد عبد الرؤوف مناوي، تحـ: د. محمد رضـوان الداية، دار الفكر المعاصـر، دار الفكر، بيروت، دمشـق، ط١، ١٤١٠هـ.

١٣. حاشـــية الجَمَل على شـــرح المنهج، ســـليمان الجَمَل، دار الفكر، بيروت، (لا.ت).
١٤. خزانـة الأدب ولـب لبـاب لســـان العرب، عبد القـادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣هـــ)، تحـــ: محمد أميل الطريفي، وأميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
١٥. دسـتور العلماء، القاضـــي عبد النبي بن عبد الرسـول الأحمد نكري، عرّبه عن الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م.
١٦. ديوان أبي تمام بشـــرح الخطيب التبريزي، تحـــــ: محمد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، (لا.ت.).
١٧. ديوان أبي العلاء المعرّي سـقط الزند، دار بيروت ودار صـــادر، بيروت، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.
١٨. الذخيرة في محاسـن أهل الجزيرة، أبو الحسـن علي بن بسّـام الشـنتريني، تحـ: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٩. ســـر الفصـــاحة، الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن ســـعيد بن ســـنان الخفاجي الحلبي(ت٤٦٦هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
٢٠. صـــبح الأعشـــى في صـــناعة الإنشـــا، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، تحـ: عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م.
٢١. الصـــناعتين الكتابة والشـــعر، أبو هلال الحســـن بن عبد الله بن ســـهل العسـكري، تحـــــ: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضـل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٢٢. فوات الوفيات، محمد بن شـــاكر أحمد الكتبي، تحـــــ: علي بن محمد بن يعوّض الله وعـادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٣. في المنهج النقدي، د. أحمد مطلوب، منشـــورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٢٤. الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـــ)، تحـــ: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (لا. ت.).

٢٥. الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، تحـــ: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨هـ.
٢٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـــ)، دار صادر، بيروت، ط١، (لا. ت.).
٢٧. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير، تحـــــ: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.
٢٨. مرآة الجنان وعبرة اليقظان، أبو محمد عبد الله بن أســـعد بن علي اليافعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٢٩. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٠. معجم مقاليد العلوم، أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحـــ: أ.د. محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
٣١. الممتع في التصريف، إبن عصفور الأشبيلي (ت٦٦٩هـــ)، تحـــ: د. فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب، ط١، ١٩٧٠م.
٣٢. هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف الجليلة، استنبول، ١٩٥٥م.
٣٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحـ : إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، (لا.ت.).

The best disposed in the language and architecture

Assis. prof. phd. Emad Yunis lafi
College of education for girls
Baghdad University

(Abstract)

This research is an attempt to concern with important subject in Arabic language and criticism . Its conception concern with poet's ability on transmitting from one subject to another in the same poem without effect on the reader or listener in order not to effect on reader or listener through reading poetry this concern had been taken by many critics and rhetorical which lead to architecture design those the writer tried to depend on in the phd. These that encourage to write a research titled (scientific and aesthetic compatibility between language and architecture .